Kassala's Mountains and the Memory of Place

Tutil and Makram: Geography, History, Legend, and Cultural Identity

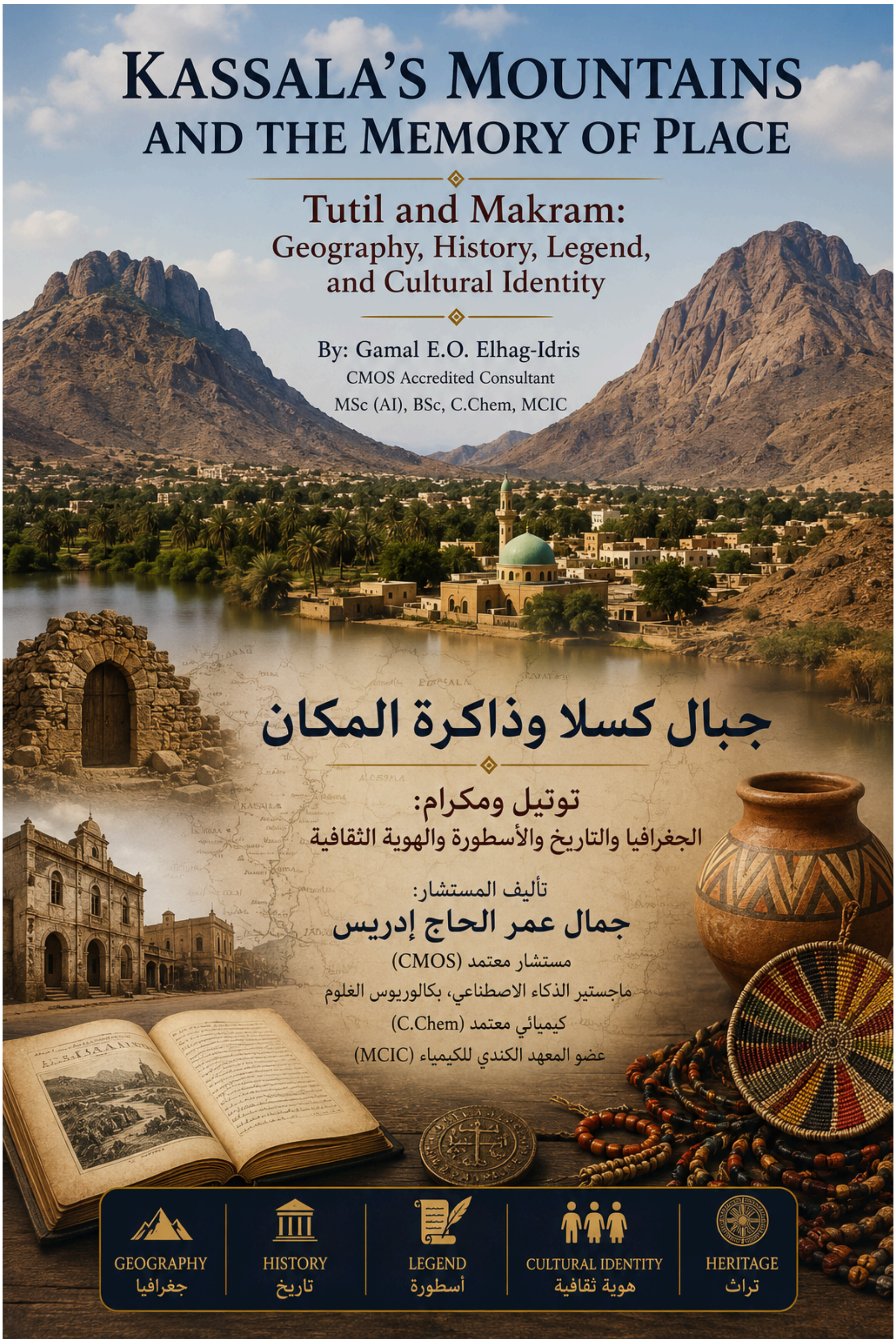
By: Gamal E.O. Elhag-Idris
CMOS Accredited Consultant
MSc (AI), BSc, C.Chem, MCIC

جبال كسلا وذاكرة المكان

توتيل ومكرام:
الجغرافيا والتاريخ والأسطورة والهوية الثقافية

تأليف المستشار:
جمال عمر الحاج إدريس
مستشار معتمد (CMOS)
ماجستير الذكاء الاصطناعي، بكالوريوس العلوم
كيميائي معتمد (C.Chem)
عضو المعهد الكندي للكيمياء (MCIC)

GEOGRAPHY جغرافيا | HISTORY تاريخ | LEGEND أسطورة | CULTURAL IDENTITY هوية ثقافية | HERITAGE تراث


KASSALA'S MOUNTAINS
AND THE MEMORY OF PLACE
Tutil and Makram:
Geography, History, Legend,
and Cultural Identity
By: Gamal E.O. Elhag-Idris
CMOS Accredited Consultant
MSc (AI), BSc, C.Chem, MCIC
جبال كسلا وذاكرة المكان
توتيل ومكرام:
الجغرافيا والتاريخ والأسطورة والهوية الثقافية
تأليف المستشار:
جمال عمر الحاج إدريس
مستشار معتمد (CMOS)
ماجستير الذكاء الاصطناعي، بكالوريوس العلوم
كيميائي معتمد (C.Chem)
عضو المعهد الكندي للكيمياء (MCIC)
GEOGRAPHY
جغرافيا
HISTORY
تاريخ
LEGEND
أسطورة
CULTURAL IDENTITY
هوية ثقافية
HERITAGE
تراث

Kassala's Mountains and the Memory of Place Tutil and Makram:

Geography, History, Legend, and Cultural Identity

By: Gamal E.O. Elhag-Idris
CMOS Accredited Consultant
MSc (AI), BSc, C.Chem, MCIC

جبال كسلا وذاكرة المكان توتيل ومكرام

الجغرافيا والتاريخ والأسطورة والهوية الثقافية

تأليف المستشار: جمال عمر الحاج إدريس
مستشار معتمد (CMOS)
ماجستير الذكاء الاصطناعي، بكالوريوس العلوم
كيميائي معتمد (C.Chem)
عضو المعهد الكندي للكيمياء (MCIC)

تنويه من المؤلف
جميع الصور في هذا الكتاب تم إنشاؤها باستخدام الذكاء الاصطناعي أداة توليد الصور، بناءً على الأوصاف التي قدمها المؤلف

2026 اغسطس: تاريخ النشر، كندا الطبعة الأولى
eBook **ISBN 978-1-997705-41-3**

ملاحظة: هذا الكتاب هو النسخة العربية

Author's Note
All images in this book were generated using artificial intelligence image generation tools, based on descriptions provided by the author

Publication Date: August 2026, 1st Edition
Canada eBook **ISBN 978-1-997705-41-3**

Note: This book is the Arabic version

تنويه المؤلف

جميع الصور الواردة في هذا الكتاب، ما لم يُذكر خلاف ذلك، أُنشئت باستخدام أدوات توليد الصور بالذكاء الاصطناعي، استنادًا إلى أوصاف ومفاهيم وضعها المؤلف.

يُرجى التعامل مع الصور بوصفها أعمالًا توضيحية وفنية، لا وثائق فوتوغرافية أو أدلة أثرية. كما يجب عدم استخدام أي صورة منها لإثبات شكل موقع تاريخي أو شخصية أو حدث من دون الرجوع إلى المصادر المتخصصة.

المحتويات

الإهداء

إلى **كسلا**...

مدينة الجبل والنهر والحدائق؛ المدينة التي لا يبهت لونها مهما تعاقبت الأعوام، ولا تغادر الذاكرة مهما تباعدت الخطى. هناك، عند سفوح توتيل وضفاف القاش، تشكّلت البدايات الأولى، وامتزجت أصوات الناس برائحة الأرض، وتحولت الحكايات الصغيرة إلى جزء من وجدان لا يشيخ.

إلى أصدقاء طفولتي ورفاق سنوات الدراسة في **مدرسة التاكا الابتدائية** و**مدرسة مكرام الثانوية العامة**؛ إلى الذين تقاسمنا معهم مقاعد الدراسة، وبراءة الصبا، وضحكات البدايات وأحلامها؛ ثم فرّقت بيننا مسالك الحياة، فمنهم من رحل عن دنيانا، ومنهم من حملته الأيام إلى بلاد بعيدة، ومنهم من غاب عن العين، لكنه ظل حاضرًا في القلب والذاكرة.

وإلى أصدقاء الصبا والجيران في **حي أبو خمسة** و**حي الترعة**؛ إلى الأزقة التي حفظت خطواتنا الأولى، والبيوت التي كانت أبوابها مفتوحة للمحبة، والوجوه التي شاركتنا أيامًا ما تزال تفاصيلها حية في النفس، كأن الزمن لم يمضِ بها.

إلى والدتي الغالية **أم جمال**، التي اقترن حضورها في حياتي بدفء الأسرة، وصدق الحكاية، وجمال كسلا؛ وإلى جدتي العزيزة، وخالاتي وخيلاني الذين رحلوا عن هذه الدنيا، رحمهم الله رحمة واسعة، وغفر لهم، وأسكنهم فسيح جناته.

كنت أصغي إلى أحاديثهم عن طفولتهم في كسلا، وعن أحيائها وأهلها، وعن زمن سبق بناء جسر القاش؛ فكانت ذكرياتهم نافذتي الأولى إلى تاريخ المدينة، وصوتًا إنسانيًا منح الماضي حياةً ومعنى. ومن خلال حكاياتهم أدركت أن تاريخ المدن لا تحفظه الوثائق وحدها، بل تصونه أيضًا ذاكرة الأسر، ومجالس الكبار، وتفاصيل الحياة اليومية التي تنتقل من جيل إلى آخر.

وإلى خالاتي وخيلاني الذين لا يزالون بيننا، أسأل الله أن يحفظهم، ويطيل أعمارهم، ويمتعهم بموفور الصحة والعافية، وأن تبقى مجالسهم امتدادًا لذاكرة الأسرة ودفئها وحنانها.

وإلى خالي العزيز **محمد صالح الخليفة**، رفيق الطفولة والدراسة، الذي جمعتني به ذكريات العمر الأولى؛ متّعه الله بالصحة والعافية، وأطال عمره في الخير والسعادة.

وإلى خالي **عمر**، وخالي الأستاذ **محي الدين**، والخال **محمد إدريس**، والخال **عمار حشال**، رحمهم الله رحمة واسعة، وجعل ذكراهم العطرة باقية في قلوب أهلهم ومحبيهم.

وإلى الممرض **علي هندي** في مستشفى كسلا، متّعه الله بالصحة والعافية؛ وإلى الحاج **أرباب الباش تمرجي** خريج مدرسة التمريض الخمسينات انجليزية حيث عمل في كسلا والقضارف وجبيت وأروما، هو زوج خالتي خديجة، رحمهما الله جميعًا؛ وإلى جارنا في كسلا **عبد الله ليمان**، وإلى صاحب الدكان **عبد الله أبو القاسم**، رحمهما الله رحمة واسعة.

وإلى والدي الغالي **أبي جمال**، حفظه الله وأطال عمره ومتّعه بالصحة والعافية؛ ذلك الرجل الذي ظل بيته عامرًا بالأصدقاء والضيوف، ومجلسه مفتوحًا لأعيان كسلا ورجالاتها. ومن خلاله عرفت رجالًا أفاضل، وتعلمت أن البيوت لا تعمر بجدرانها، بل بمن يدخلها من أهل المودة والوفاء، وبما يبقى فيها من أثر الحديث الطيب والذكر الحسن.

وإلى جدنا **الخليفة إدريس محمد**، رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته؛ فقد حفظ لنا في أحاديثه صفحات من تاريخ كسلا، وروى لنا من ذكرياته عن سنوات الحرب العالمية الثانية وعن **«أرطة كسلا»** ما جعل الماضي قريبًا من الخيال، حيًا في الوجدان.

كانت حكاياته مدرسة لا تقوم على الكتب وحدها، بل على صدق الذاكرة وخبرة من عاشوا الأحداث وشهدوا تحولات المدينة بأعينهم. ومن خلاله أدركنا أن شهادة الإنسان البسيط قد تحمل من المعاني والتفاصيل ما لا تحمله السجلات الرسمية، وأن الذاكرة الشفوية قد تحفظ من تاريخ المدن ما تعجز الوثائق أحيانًا عن قوله.

وإلى أصدقاء والدي من أعيان كسلا ورجالاتها الأجلاء، الذين كان منزلنا يزدهي بحضورهم، وتتعلّم الأجيال من أحاديثهم معاني الشهامة والكرم وخدمة المجتمع؛ إلى من رحل منهم، رحمهم الله وجزاهم عن أهلهم ومدينتهم خير الجزاء، وإلى من لا يزالون بيننا، أطال الله أعمارهم وألبسهم ثوب الصحة والعافية.

أذكر منهم، وفاءً وعرفانًا:

الأستاذ **سيد أحمد محمد هاشم،** رحمه الله، وشقيقه **موسى محمد هاشم؛** والقيادات السابقة في الجيش السوداني: **جعفر محمد، وأحمد علي عيسى، وعثمان حشال، وعمر أزاز،** وأبناءهم الكرام.

وإلى **أسرة آل كجراي،** وفي مقدمتهم عميد الأسرة، الشاعر **محمد عثمان كجراي،** والأستاذ **عبد الرحيم كجراي؛** وإلى **الخليفة شيخ جلاد** وأبنائه، ومنهم الأستاذ **هاشم جلاد؛** وإلى **أبي بكر شقراي** وجميع أفراد **أسرة آل شقراي؛** وإلى الأستاذ **عبد الرحيم هلاوي** وجميع أفراد **أسرة آل هلاوي؛** وإلى **أسرة آل دارشح.**

كما أهدي هذه الكلمات إلى العم **ياسين علي جامع،** والعم **حسن صالح أبرايت،** والعم **عبد الله قايد؛** وإلى جميع أفراد **أسرة آل قايد، وأسرة آل محمد موسى،** و**أسرة آل داير،** و**أسرة آل هاسري؛** تقديرًا لما جمعنا بهم من مودة صادقة وذكريات طيبة.

كما أذكر المعلم الجليل الأستاذ **إدريس إبراهيم إدريس،** صاحب المنزل العامر في الختمية؛ وخاله الشيخ **حامد همد؛** والعمدة **أحمد جعفر؛** و**محمود إبراهيم فرافيشو** ووالده العم **فرافيشو؛** والعم **هاشم الطيب** وأبناءه؛ والعم **عمر عبد المجيد؛** والعم **عثمان علي ناصر؛** والعم **صعد الله** وشقيقه وأبناءه.

وإلى رفيق الدراسة **حسين** صعدالله رحمه الله، وشقيقه **فوزي؛** وإلى **إبراهيم الصومالي** وأسرته؛ وإلى العم **التوم السروجي** وشقيقه العم **هاشم السروجي؛** والعم **علي بشلاوي؛** والناظر **عثمان القدال** في مدرسة مكرام الثانوية العامة؛ وأستاذي **ود الخضر،** مدرس اللغة الإنجليزية؛ والدكتور **كمال محمد علي،** المدير السابق لمستشفى كسلا؛ والعجلاتي **آدم مكينة؛** والحلاق **موسى مهدي.**

وتمتد الذاكرة كذلك إلى **مكتبة إبراهيم خليل** و**مكتبة داود** و**مستشفى كسلا التعليمي**؛ وإلى الممرض **إبراهيم**؛ وطبيب الأسنان **هاشم**؛ ووالده الباش تمرجي في العيادة المدرسية المقابلة لمنزل الممرض **طه**، بالقرب من محطة العمدة.

لم تكن هذه الأماكن مجرد مبانٍ أو مرافق، بل كانت معالم يومية في حياة الناس؛ تحمل وجوه العاملين فيها، وأصوات المراجعين والطلاب، وتفاصيل مدينة كانت تنمو بهدوء في ذاكرة أبنائها. وكانت المكتبات والعيادات والأسواق والمنازل المفتوحة أجزاءً من تاريخ كسلا الاجتماعي، تحفظه الذاكرة كما تحفظه الخرائط والصور.

وإلى ذكريات الطفولة مع **أولاد النية**، الذين كانت والدتهم صديقة لوالدتي وخالاتي وجدتي، رحمها الله، منذ أيام **حي أشلاق البوليس**؛ وإلى أصدقاء الطفولة **عبد المتعال** وشقيقه، و**عماد عمر عبد المجيد**، و**إبراهيم عثمان علي ناصر**، و**عادل الصومالي**، وجارهم **الفاضل**، و**علي أشقر**، و**عمر عبد الماجد**، ابن عم عبد الماجد وصديق الوالد.

وإلى الفنان **حامد إبراهيم – كاتا**؛ وإلى **أسرة آل الشفيع**؛ وإلى جارنا وصديق الطفولة الملقب بـ**عثمان جدادة**؛ وإلى كل من كانت له يد في خدمة كسلا وأهلها، أو ترك في حياتنا ذكرًا طيبًا وأثرًا لا يُنسى.

وإلى كل اسم كريم لم تسعفني الذاكرة بذكره، أو سقط مني سهوًا، فله مني خالص الاعتذار وعظيم التقدير؛ فالفضل لا ينقصه غياب الاسم عن الصفحة، ولا يمحو الزمن أثر صاحبه من القلب.

رحم الله من غادروا دنيانا من أهلنا وأصدقائنا ورجالات كسلا، وجعل ما قدموه في ميزان حسناتهم. وحفظ الله من بقي منهم، وأطال أعمارهم، وبارك في صحتهم وأسرهم وأيامهم.

وإلى كل أبناء كسلا وبناتها، داخل السودان وخارجه؛ إلى الذين حملوا مدينتهم في وجدانهم، واستصحبوا أسماء أحيائها، وروائح حدائقها، وصوت القاش، وهيبة جبالها، إلى المنافي والبلاد البعيدة.

هذا الكتاب ليس سردًا لتاريخ مكان فحسب، بل رسالة وفاء لمدينة صنعت جانبًا عزيزًا من وجداني، ولأناس عاشوا ببساطة وكرامة، وتركوا أثرًا لا يزول.

وإن كانت الصفحات تحفظ الأحداث، فإن القلوب تحفظ أصحابها؛ وإن كان التاريخ يسجل ما وقع، فإن الذاكرة تصون ما شعرنا به، وما أحببناه، وما بقي فينا من الذين مرّوا بحياتنا. وتظل الذكريات من أجمل ما يورثه الإنسان للأجيال القادمة.

إلى كسلا...

إلى الذين رأوا في توتيل أكثر من جبل، وفي القاش أكثر من نهر موسمي؛
إلى الذين رأوا في المدينة بيتًا للروح قبل أن تكون مكانًا على الخريطة؛
وإلى كل من غادرها، وظلت صورتها تسكن قلبه وترافقه أينما مضى.

إليكم جميعًا أهدي هذا الكتاب؛ عرفانًا بالجميل، ووفاءً للراحلين، ومحبةً للأحياء، وتقديرًا لمدينة ستظل، مهما ابتعدنا عنها، مقيمةً في القلب والذاكرة.

جمال عمر الحاج إدريس

الهدف من الكتاب

يهدف هذا الكتاب إلى دراسة مدينة كسلا وجبالها، ولا سيما توتيل ومكرام، من منظور يجمع بين الجغرافيا والتاريخ والتراث الشعبي والهوية الثقافية.

ولا ينظر الكتاب إلى الجبال بوصفها تكوينات صخرية منفصلة عن المجتمع، بل يبحث في علاقتها بالعمران ونهر القاش والأحياء القديمة والحركة التجارية والروايات الشفوية وحياة السكان اليومية.

كما يهدف إلى التمييز بوضوح بين ثلاثة أنواع من المعرفة:

1. الوقائع التاريخية التي تؤيدها الوثائق والمصادر.
2. المعلومات الجغرافية والبيئية التي يمكن دراستها علميًا.
3. الأساطير والحكايات الشعبية التي تُحترم باعتبارها تراثًا ثقافيًا، من دون تقديمها على أنها حقائق مثبتة.

ويسعى الكتاب كذلك إلى تشجيع البحث الميداني في جبال كسلا، وحماية المواقع الطبيعية والعمرانية، وتوثيق أسماء المواضع والروايات المحلية قبل أن تضيع مع تغير الأجيال.

منهج الدراسة وحدودها

يعتمد الكتاب منهجًا بينيًا يجمع بين التاريخ والجغرافيا الثقافية ودراسة التراث الشفوي والتحليل الاجتماعي. استُخدمت فيه مصادر رسمية وأممية وأكاديمية، إلى جانب مواد صحفية وثقافية توثق صورة توتيل وكسلا في الذاكرة العامة. وقد جرى التعامل بحذر مع الروايات التي لم تؤيدها وثائق تاريخية أو دراسات متخصصة.

ولا يدّعي الكتاب تقديم دراسة جيولوجية ميدانية كاملة لجبال التاكا، لأن ذلك يحتاج إلى تحليل للصخور وخرائط طبوغرافية ومسوحات علمية تفصيلية. كما لا يدّعي حسم أصول جميع أسماء الجبال والأحياء، لأن بعضها انتقل شفويًا بين لغات محلية متعددة.

ويُشار إلى الحكايات الشعبية بصفتها روايات متداولة بين السكان، لا باعتبارها أحداثًا تاريخية يمكن إثباتها بالوثائق.

الملخص

تقع مدينة كسلا في شرق السودان، بالقرب من الحدود الإريترية، وتجاور مجموعة من الكتل الصخرية المعروفة بجبال التاكا. ويمنح اجتماع الجبال ونهر القاش والسهول الزراعية المدينة مشهدًا طبيعيًا متميزًا [1][2].

يُعد جبل توتيل أشهر معالم كسلا الطبيعية والثقافية. فقد ارتبط بنبع مائي وبمقولة شعبية تفيد بأن من يشرب من مائه يعود إلى المدينة. وتحول سفحه مع الزمن إلى فضاء اجتماعي وسياحي تُعرض فيه الحرف والمشروبات والأطعمة المحلية [3][4].

أما مكرام، فيمثل جزءًا مهمًا من المشهد الجبلي، وإن كان أقل حضورًا في المصادر المكتوبة. ويكشف ضعف التوثيق المتعلق به عن الحاجة إلى دراسات ميدانية تحفظ أسماء المواضع وحكاياتها.

يراجع الكتاب تاريخ كسلا الحديثة منذ نموها بوصفها مركزًا إداريًا وتجاريًا في القرن التاسع عشر، ثم دخولها مرحلة الحكم المهدوي، والاحتلال الإيطالي بين عامي 1894 و1897، والحكم البريطاني–المصري، وأحداث الحرب العالمية الثانية، والاستقلال وما بعده [5][6].

كما يدرس الكتاب دور مجتمعات البجا والختمية والتجار والمزارعين واللاجئين والمهاجرين في تكوين هوية المدينة. ويخلص إلى أن حماية جبال كسلا يجب ألا تقتصر على تنشيط السياحة، بل ينبغي أن تشمل حماية البيئة والتراث العمراني والرواية الشفوية وحقوق السكان المحليين.

المقدمة

تبدأ كسلا من مشهد يصعب فصله إلى عناصر منفردة. فهناك جبال ترتفع بمحاذاة المدينة، ونهر القاش الموسمي يعبر سهولها، وأحياء وأسواق وحدائق نمت بين الجبل والماء.

ولم تكن الجبال مجرد خلفية ثابتة للعمران. فقد تحولت إلى علامات يهتدي بها السكان، وأماكن للزيارة، وموضوعات للشعر والغناء، ورموز للحضور التاريخي والثقافي.

أما نهر القاش، فقد أدى دورًا مختلفًا. فهو مصدر للرواسب الزراعية والمياه الموسمية، لكنه قد يصبح خطرًا على الأحياء والمزارع عندما ترتفع مناسيب الفيضان. ومن هنا نشأت علاقة مركبة بين سكان كسلا وبيئتهم: علاقة تجمع المنفعة والخوف والجمال والحذر.

ساعد موقع كسلا في شرق السودان، بالقرب من الحدود الإريترية وعلى طرق تربط الداخل السوداني بساحل البحر الأحمر، في تحويلها إلى مركز للتجارة والهجرة والاتصال بين المجتمعات.

وتكوّنت هوية المدينة من تفاعل مجموعات متعددة، من بينها مجتمعات البجا والطريقة الختمية والتجار والمزارعون والقادمون من مناطق سودانية مختلفة، فضلًا عن اللاجئين والمهاجرين من الدول المجاورة.

يحاول هذا الكتاب قراءة كسلا من خلال المكان. وهو لا يكتفي بسرد الحروب والحكومات، بل يسأل: كيف أصبح الجبل جزءًا من الذاكرة؟ وكيف تحول النبع إلى حكاية؟ وكيف أسهم السوق والحي والطريق والحدود في تشكيل هوية المدينة؟

الفصل الأول

كسلا: الموقع والجغرافيا الإقليمية

تقع ولاية كسلا في شرق السودان، وتشترك في حدود دولية مع إريتريا وإثيوبيا. كما ترتبط بعدد من الولايات السودانية، وهو ما يمنحها أهمية جغرافية واقتصادية وإنسانية [1].

تمثل مدينة كسلا مركز الولاية وأحد أهم المراكز الحضرية في شرق البلاد. وقد ساعد موقعها على الطرق المؤدية إلى الخرطوم وبورتسودان والمناطق الحدودية في تنشيط التجارة وحركة السكان.

تجمع البيئة المحيطة بالمدينة بين السهول شبه الجافة والمرتفعات الصخرية والمجاري المائية الموسمية. وقد أسهم هذا التنوع في ظهور أنشطة اقتصادية متعددة تشمل الزراعة والرعي والتجارة والخدمات.

لا يمكن تفسير أهمية كسلا بموقعها الحدودي وحده. فالمدينة تتوسط مجالًا اجتماعيًا قديمًا تحركت خلاله القبائل والتجار والرعاة والحجاج قبل نشوء الحدود السياسية الحديثة.

ولهذا تجمع كسلا بين صفتين: فهي مدينة داخل الدولة السودانية، وفي الوقت نفسه جزء من مجال تاريخي واجتماعي واسع يربط شرق السودان بالمناطق المجاورة.

خلاصة الفصل

يمنح الموقع الجغرافي كسلا أهميتها الإقليمية. فهي مدينة حدودية وتجارية وزراعية، لكنها أيضًا نقطة التقاء بين مجتمعات وطرق تاريخية متعددة.

مراجع الفصل

[1] مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية، «ملف ولاية كسلا»، 2023.

[2] جامعة كسلا، «عن ولاية كسلا».

الفصل الثاني

جبال التاكا والتكوين الطبيعي

تقع جبال التاكا بالقرب من مدينة كسلا، وتظهر في صورة كتل صخرية ضخمة ذات واجهات ملساء وقمم مستديرة. ويُشار إلى الجرانيت بوصفه المكوّن العام البارز لهذه التكوينات في الأوصاف المتاحة [3].

تضم المنطقة عدة قمم وكتل صخرية تحمل أسماء محلية، من بينها توتيل ومكرام وأويتلا. وقد تختلف طريقة كتابة هذه الأسماء ونطقها بين العربية واللغات المحلية والمصادر الأجنبية.

تؤثر المنحدرات والشعاب المحيطة بالجبال في حركة مياه الأمطار والسيول. كما توفر بعض المواضع ظلالًا ومساحات طبيعية يقصدها السكان للراحة والتجمع.

وتختلف ارتفاعات القمم؛ لذلك لا يصح استخدام رقم واحد لوصف السلسلة كلها. كما أن تحديد أعمار الصخور وتاريخ تكوينها يحتاج إلى دراسات جيولوجية ميدانية، لا إلى الوصف البصري وحده.

تتمثل القيمة الأساسية لهذه الجبال في اجتماع خصائصها الطبيعية مع قربها الشديد من المدينة. فهي ليست مرتفعات بعيدة عن العمران، بل جزء مباشر من المشهد الحضري.

خلاصة الفصل

جبال التاكا تكوين طبيعي مميز، أسهم قربه من المدينة في تحويل الجغرافيا إلى جزء من الحياة اليومية والهوية البصرية لكسلا.

مراجع الفصل

[3] American Alpine Club, “Jebel Kassala, The Rüppell Face.”

[4] عامر صالح، «سلسلة جبال التاكا: مملكة الجن ومعلم ولاية كسلا الأبرز».

الفصل الثالث

جبل توتيل: الطبيعة والنبع

يُعد توتيل أشهر جبال كسلا وأكثرها حضورًا في الكتابات السياحية والروايات الشعبية. ويقع بالقرب من منطقة الختمية، مما جعله مرتبطًا بالمدينة القديمة وبالمشهد الديني والاجتماعي المحيط بها.

يشتهر الجبل بنبع مائي يرتبط غالبًا بموسم الأمطار. وقد أصبح النبع جزءًا من صورة توتيل في الوعي المحلي، لا بسبب أهميته المائية وحدها، بل بسبب الحكايات التي أحاطت به.

تقول العبارة الشعبية المتداولة: «البيشرب من توتيل تاني بجي راجع». وتعني أن من يشرب من ماء النبع سيعود إلى كسلا مرة أخرى [4].

لا تمثل هذه العبارة حقيقة علمية، لكنها تعبر عن الحنين والانتماء. فالعودة في معناها الرمزي قد تكون عودة بالجسد، أو بقاءً للمكان في الذاكرة.

يقصد السكان والزائرون سفح توتيل للجلوس وتناول القهوة والشاي والزنجبيل وشراء بعض المنتجات المحلية. وبذلك أصبح الجبل فضاءً اجتماعيًا يجمع بين الطبيعة والضيافة والاقتصاد الصغير.

خلاصة الفصل

ارتبط توتيل بالنبع والزيارة والعودة الرمزية. وقد جعلته هذه العناصر معلمًا ثقافيًا حيًا، يتجاوز قيمته الجيولوجية.

مراجع الفصل

[4] عامر صالح، «سلسلة جبال التاكا».

[5] عماد عبد الهادي، «توتيل: جبل الحب والبركات بشرق السودان».

الفصل الرابع

جبل مكرام والمرتفعات المحيطة

يمثل مكرام أحد مكونات المشهد الجبلي المحيط بكسلا، لكنه لا يحظى بالقدر نفسه من التوثيق الذي حظي به توتيل. ويظهر اسم مكرام في الذاكرة المحلية وفي أوصاف المدينة، إلا أن المعلومات المنشورة عن أصل التسمية وتاريخها محدودة. ولهذا لا يمكن الجزم بأن الاسم مشتق من كلمة معينة أو مرتبط بشخصية تاريخية محددة.

تكشف هذه المحدودية عن مشكلة في دراسة الجغرافيا المحلية، إذ تحظى المعالم السياحية الأشهر بالاهتمام، بينما تبقى أسماء المواقع الأخرى محفوظة في ذاكرة السكان من دون تدوين كافٍ. يحتاج مكرام إلى دراسة ميدانية مستقلة تسجل موقعه وخصائصه وأسماء الشعاب والمواضع القريبة منه، وتجمع الروايات الشفوية المرتبطة به من مصادر متعددة. ويجب أن يشمل التوثيق كتابة الاسم كما ينطقه السكان بلغاتهم، ثم مقارنته بأشكاله في الخرائط والوثائق القديمة.

خلاصة الفصل

مكرام جزء أصيل من صورة كسلا، لكن أهميته لم تُدرس بما يكفي. والاعتراف بنقص المعلومات أكثر علمية من اختراع تفسيرات غير موثقة.

مراجع الفصل

[4] عامر صالح، «سلسلة جبال التاكا».

[5] عماد عبد الهادي، «توتيل: جبل الحب والبركات بشرق السودان».

الفصل الخامس

نهر القاش والحياة الزراعية

نهر القاش مجرى موسمي يعبر منطقة كسلا خلال موسم الأمطار. وتأتي مياهه من المرتفعات الواقعة شرق المدينة، ثم تحمل معها الرواسب التي تسهم في خصوبة الأراضي الزراعية.

ساعد القاش على نمو البساتين وزراعة المحاصيل، وأصبح جزءًا أساسيًا من الاقتصاد المحلي. وترتبط صورة كسلا في الوعي السوداني بالحدائق والفاكهة والخضرة التي تظهر في بيئة يغلب عليها الجفاف.

لكن القاش لا يجلب المنفعة وحدها. فقد شهدت كسلا فيضانات شديدة ألحقت أضرارًا بالمنازل والمزارع والطرق. وفي فيضان عام 2003 غمرت المياه أجزاء واسعة من المدينة، وأظهرت الصور الفضائية حجم الضرر الذي أصاب السكان والزراعة [6].

تشير الدراسات الحديثة إلى تفاوت مخاطر الفيضان بين أجزاء المدينة، وإلى الحاجة إلى تطوير الحواجز والقنوات ومناطق تصريف المياه، وربط التخطيط العمراني بخرائط المخاطر [7]. وتشمل الإدارة السليمة للنهر مراقبة مناسيب المياه، وصيانة الجسور الترابية، ومنع البناء في المجاري المعرضة للفيضان، وتطوير أنظمة الإنذار المبكر.

خلاصة الفصل

القاش مصدر للحياة الزراعية ومصدر للخطر في الوقت نفسه. ولا يمكن حماية كسلا من دون إدارة علمية للنهر تقوم على التخطيط والاستعداد، لا على الاستجابة بعد وقوع الكارثة.

مراجع الفصل

[6] NASA Earth Observatory, “Flooding along the River Gash in Sudan.”

[7] Shuka et al., “Flood Risk Mitigation: A Case Study of the Gash River, Kassala.”

[8] برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، «الاستثمار في منشآت الوقاية من الفيضانات في مدينة كسلا».

الفصل السادس

نشأة كسلا الحديثة

كانت منطقة التاكا مأهولة قبل نشوء مدينة كسلا الحديثة، وكانت جزءًا من مجال الرعي والتجارة والحركة الاجتماعية لمجتمعات شرق السودان. أما المدينة الإدارية الحديثة، فقد تطورت خلال القرن التاسع عشر في سياق الحكم التركي–المصري. وأدى إنشاء المراكز الحكومية والعسكرية والأسواق إلى توسع العمران واستقرار مزيد من السكان.

أصبحت كسلا مركزًا إداريًا وتجاريًا يخدم المناطق الشرقية، وساعد موقعها على ربط الداخل السوداني بالمناطق القريبة من البحر الأحمر والمرتفعات الإريترية والإثيوبية.

وكان للختمية حضور مؤثر في نمو أحد أهم أحياء المدينة القديمة. فقد جذب المركز الديني الأتباع والزوار، وأسهم في نشوء أنشطة تجارية وسكنية حوله [2]. ولا يعني تأسيس المركز الإداري أن المنطقة بدأت تاريخها في القرن التاسع عشر؛ فالسكان والطرق المحلية أقدم من المدينة الحكومية. لذلك يجب التمييز بين تاريخ الإقليم وتاريخ التكوين الحضري الحديث.

خلاصة الفصل

نشأت كسلا الحديثة من التقاء الإدارة والتجارة والدين والموقع الجغرافي. ولم تُبنَ في أرض خالية، بل تطورت داخل مجال اجتماعي مأهول وأقدم منها.

مراجع الفصل

[2] جامعة كسلا، «عن ولاية كسلا».

[9] Robert O. Collins, A History of Modern Sudan.

الفصل السابع

الختمية والعمران الديني

ترتبط منطقة الختمية بالطريقة الصوفية التي أسسها السيد محمد عثمان الميرغني، المعروف بالختم، خلال القرن التاسع عشر. أدى المركز الديني في كسلا دورًا في جذب الأتباع والطلاب والزوار، ونشأت حوله مساكن وأسواق وعلاقات اجتماعية امتدت إلى مناطق أخرى في السودان وإريتريا.

وتظهر المعالم الدينية، بما فيها المسجد والقباب والمقابر، في صورة كسلا العمرانية. وقد أصبح وجودها بالقرب من الجبال جزءًا من المشهد المميز للمدينة. ولا ينبغي وصف جميع المباني القديمة بأنها أثرية أو تعود إلى تاريخ واحد. فبعضها تعرض للهدم أو الترميم أو إعادة البناء، وتحديد تاريخه يحتاج إلى دراسة معمارية ووثائق محلية.

كما يجب التفريق بين الختمية والمهدية. فالختمية طريقة صوفية ذات تاريخ ديني واجتماعي وسياسي خاص، بينما المهدية حركة دينية وسياسية وعسكرية أقامت دولة في السودان خلال أواخر القرن التاسع عشر.

خلاصة الفصل

أسهمت الختمية في تشكيل العمران والهوية الدينية والاجتماعية لكسلا، لكن دراسة معالمها تحتاج إلى توثيق معماري وتاريخي دقيق.

مراجع الفصل

[2] جامعة كسلا، «عن ولاية كسلا».

[10] John O. Voll, Islam: Continuity and Change in the Modern World.

الفصل الثامن

كسلا في عهد المهدية

امتدت الثورة المهدية إلى شرق السودان في ثمانينيات القرن التاسع عشر، وأصبح عثمان دقنة من أبرز قادتها في المنطقة. دخلت كسلا مرحلة من الحصار والصراع، وانتهى الوجود التركي–المصري المباشر فيها بعد استسلام الحامية للقوات المهدية.

ارتبطت الأحداث كذلك بتطورات إقليمية، من بينها تحرك القوات الإثيوبية بقيادة رأس ألولا في سياق معاهدة هيويت والصراع بين إثيوبيا والدولة المهدية والقوى الأوروبية.

لم تكن الجبال هي ميدان المعارك الوحيد، لكنها كانت جزءًا من البيئة الاستراتيجية المحيطة بالمدينة، بما توفره المرتفعات من رؤية ومراقبة ومسالك طبيعية. ويجب قراءة أرقام القوات والخسائر الواردة في التقارير القديمة بحذر، لأن المصادر العسكرية والاستعمارية كثيرًا ما قدمت روايات متعارضة.

خلاصة الفصل

جعلت المهدية من كسلا جزءًا من صراع إقليمي واسع. وقد ارتبط تاريخ المدينة في هذه الفترة بالدولة المهدية وإثيوبيا والبحر الأحمر والتوسع الأوروبي.

مراجع الفصل

[9] Collins, A History of Modern Sudan.

[11] P. M. Holt, The Mahdist State in the Sudan.

الفصل التاسع

الاحتلال الإيطالي الأول، 1894–1897

في 17 يوليو 1894 هاجمت قوات إيطالية قادمة من مستعمرة إريتريا مواقع القوات المهدية في كسلا، وتمكنت من السيطرة على المدينة. قاد الحملة الجنرال أوريستي باراتييري، وكان الهدف المعلن تأمين حدود المستعمرة الإيطالية والحد من هجمات القوات المهدية. تشير المصادر إلى أن المعركة كانت عنيفة وأن الطرفين تكبدا خسائر. غير أن الأرقام التفصيلية الواردة في المصادر الاستعمارية لا ينبغي قبولها من دون مقارنة ونقد [12].

استمر الوجود الإيطالي في كسلا نحو ثلاث سنوات. وفي عام 1897 سُلّمت المدينة إلى السلطات البريطانية–المصرية في إطار التفاهمات السياسية والعسكرية التي أعقبت تغير موازين القوى في المنطقة. كانت السيطرة الإيطالية احتلالًا مؤقتًا، ولم تتحول كسلا إلى جزء دائم من المستعمرة الإريترية. ولهذا يجب تجنب وصف هذه المرحلة بأنها ضم قانوني نهائي.

خلاصة الفصل

مثّل الاحتلال الإيطالي مرحلة قصيرة لكنها مؤثرة، وكشف عن أهمية كسلا في التنافس الاستعماري والأمني بين السودان وإريتريا والبحر الأحمر.

مراجع الفصل

[12] George Fitz-Hardinge Berkeley, The Campaign of Adowa and the Rise of Menelik.

[13] Anthony D'Avray, The Nakfa Documents.

[14] "Italian Victory in Africa," The New York Times, July 20, 1894.

الفصل العاشر

الحكم الثنائي والتحولات الحضرية

أصبح السودان خاضعًا للحكم البريطاني–المصري رسميًا منذ عام 1899. وأُعيد تنظيم كسلا إداريًا ضمن النظام الجديد. شهدت المدينة توسعًا في الإدارة والنقل والتجارة، وتحسن اتصالها بالمناطق الأخرى عبر الطرق وخطوط السكك الحديدية.

اهتمت الإدارة الاستعمارية بالزراعة والإنتاج التجاري، بما يخدم حاجاتها الاقتصادية. ولذلك لا ينبغي وصف هذه السياسات بأنها تحديث محايد؛ فقد ارتبطت أيضًا بالضرائب وضبط السكان وتوجيه الإنتاج.

استمرت الأسواق المحلية والروابط القبلية والطائفية في أداء أدوارها، ولم تستبدلها المؤسسات الحكومية بالكامل. وبذلك نشأ نظام حضري يجمع بين الإدارة الرسمية والبنية الاجتماعية المحلية. كما ساعد تحسن النقل في زيادة حركة البضائع والأشخاص، وربط المدينة بصورة أوثق ببورتسودان والخرطوم والمناطق الزراعية المجاورة.

خلاصة الفصل

شهدت كسلا خلال الحكم الثنائي تغيرات إدارية واقتصادية، لكنها لم تفقد بنيتها الاجتماعية المحلية. فقد تطورت المدينة من خلال التفاعل بين النظام الاستعماري والمجتمع القائم.

مراجع الفصل

[9] Collins, A History of Modern Sudan.

[15] M. W. Daly, Empire on the Nile: The Anglo-Egyptian Sudan.

الفصل الحادي عشر

كسلا خلال الحرب العالمية الثانية

في يوليو 1940 دخلت القوات الإيطالية كسلا مرة أخرى، ضمن حملة شرق أفريقيا التي جرت خلال الحرب العالمية الثانية. جاءت القوات من إريتريا، التي كانت جزءًا من شرق أفريقيا الإيطالية، وانسحبت الحامية البريطانية من المدينة بعد القتال.

لم يدم الاحتلال طويلًا. ففي يناير 1941 انسحبت القوات الإيطالية، وعادت القوات البريطانية وحلفاؤها إلى كسلا ضمن العمليات التي انتهت بسقوط السيطرة الإيطالية في إريتريا وإثيوبيا.

أعادت هذه الأحداث إبراز أهمية المدينة بوصفها نقطة اتصال بين السودان وإريتريا، وموقعًا يمكن استخدامه للتحرك العسكري والإمداد. وتوجد روايات محلية عن شخصيات وأحداث إدارية وقبلية مرتبطة بتلك المرحلة، إلا أن بعضها يحتاج إلى وثائق أصلية قبل إدراجه ضمن الوقائع المؤكدة.

خلاصة الفصل

أظهرت أحداث الحرب العالمية الثانية أن موقع كسلا الحدودي جعلها عرضة للتأثر المباشر بالصراعات الدولية والإقليمية.

مراجع الفصل

[16] Andrew Stewart, The First Victory: The Second World War and the East Africa Campaign.

[17] Anthony Mockler, Haile Selassie’s War.

الفصل الثاني عشر

البجا والتنوع الاجتماعي والثقافي

يمثل البجا أحد أقدم المكونات السكانية في شرق السودان والمناطق المجاورة للبحر الأحمر. وتضم مجتمعاتهم مجموعات متعددة، من بينها الهدندوة والأمرار والبشاريون وغيرها. وترتبط حياة مجتمعات كثيرة من البجا تاريخيًا بالرعي والتجارة والتنقل بين السهول والمرتفعات ومصادر المياه.

حافظت المجتمعات البجاوية على لغاتها وأنماط ملبسها وموسيقاها وشعرها وعاداتها في الضيافة، رغم التغيرات السياسية والاقتصادية. وتضم كسلا كذلك البني عامر والحباب والحلنقة والرشايدة، إضافة إلى سكان قدموا من شمال السودان وغربه ووسطه، وإلى مجتمعات إريترية وإثيوبية. لذلك لا تمثل كسلا جماعة واحدة أو ثقافة مغلقة. فقد تشكلت هويتها من التفاعل بين سكان ذوي لغات وأصول وتجارب مختلفة.

خلاصة الفصل

الثقافة البجاوية ركن أساسي في هوية كسلا، لكن المدينة متعددة المكونات، ولا يمكن اختزالها في صورة قبلية أو ثقافية واحدة.

مراجع الفصل

[18] A. Paul, A History of the Beja Tribes of the Sudan.

[19] Omer Egemi, “The Beja of Eastern Sudan.”

الفصل الثالث عشر

اللجوء الإريتري والعلاقات العابرة للحدود

استقبل شرق السودان لاجئين من إريتريا منذ ستينيات القرن العشرين، مع اتساع حرب الاستقلال الإريترية. واستقرت أعداد كبيرة في المخيمات والمدن والمناطق الزراعية [20]. أصبح هذا الوجود واحدًا من أطول أوضاع اللجوء في أفريقيا. وقد عاش اللاجئون في ولاية كسلا والقضارف ومناطق أخرى، بعضهم داخل المخيمات وبعضهم في المدن.

أدت الحرب الإريترية–الإثيوبية بين عامي 1998 و2000 إلى موجة جديدة من النزوح نحو السودان. وبعد انتهاء الحرب، نظمت المفوضية برامج للعودة الطوعية، إلا أن الوجود الإريتري في شرق السودان استمر [21]. أسهم اللاجئون والمهاجرون في الأسواق والعمل والتعليم والحياة الاجتماعية. كما واجهوا تحديات تتعلق بالفقر والوثائق والتنقل والحماية والاتجار بالبشر. ولا يجوز اعتبار جميع الإريتريين في كسلا لاجئين؛ فهناك أسر تقيم منذ أجيال، وروابط قرابة ومصاهرة ومجتمعات تمتد تاريخيًا على جانبي الحدود.

خلاصة الفصل

يمثل الوجود الإريتري جزءًا من التاريخ الاجتماعي الحديث لكسلا. ولا يمكن فهمه من خلال صفة قانونية واحدة، بل من خلال اللجوء والهجرة والقرابة والتجارة والإقامة الطويلة.

مراجع الفصل

[20] UNHCR, “UNHCR Looks at Solutions for Eritrean Refugees of Eastern Sudan,” 2007.

[21] UNHCR, “Eritrean Returns Cross 50,000,” 2002.

[22] UNHCR, No Turning Back, 2011.

الفصل الرابع عشر

الأسطورة والرواية الشفوية

تُنتج المجتمعات حكاياتها عن الأماكن التي تحبها أو تخشاها أو ترتبط بها. ولهذا نشأت حول توتيل روايات عن الماء والبركة والحب والعودة. لا تعني كلمة «أسطورة» في هذا السياق أن الحكاية كاذبة أو عديمة القيمة. فالأسطورة الثقافية طريقة يمنح بها المجتمع المكان معنى يتجاوز طبيعته المادية.

تعبّر مقولة العودة إلى توتيل عن تعلق السكان والزائرين بكسلا. وقد أصبحت العبارة وسيلة للتعبير عن الحنين، وانتقلت من الحديث اليومي إلى الصحافة والسياحة.

لكن الرواية الشفوية تتغير مع الزمن. فقد يضيف كل راوٍ تفاصيل جديدة، أو يربط القصة بشخصية مختلفة، أو ينقلها إلى زمن آخر. ولهذا يجب عند توثيق الروايات تسجيل اسم الراوي وعمره ومكان المقابلة وتاريخها ولغتها، ثم مقارنة الروايات وعدم دمجها في صيغة واحدة مصطنعة.

خلاصة الفصل

تحفظ الرواية الشفوية علاقة السكان بالمكان، لكنها تحتاج إلى منهج علمي يحميها من الضياع والتحريف، من دون تحويلها إلى حقيقة تاريخية غير موثقة.

مراجع الفصل

[4] عامر صالح، «سلسلة جبال التاكا».

[5] عماد عبد الهادي، «توتيل: جبل الحب والبركات».

[23] Jan Vansina, Oral Tradition as History.

الفصل الخامس عشر

الأسواق والحرف والمشهد الاجتماعي

تؤدي الأسواق دورًا أساسيًا في هوية كسلا. فهي ليست أماكن للبيع والشراء فقط، بل فضاءات للقاء وتبادل الأخبار والعادات واللغات. تعرض الأسواق منتجات زراعية وحيوانية وحرفية، إلى جانب الملابس والعطور والأطعمة والمشروبات المرتبطة بشرق السودان. وعند سفح توتيل، ترتبط الزيارة غالبًا بالقهوة والشاي والزنجبيل والحرف والهدايا المحلية. ويسهم هذا النشاط في توفير دخل للأسر والبائعين الصغار.

كما تمثل الموسيقى والملابس والزينة وطقوس إعداد القهوة أجزاء من تجربة المكان. وهي عناصر من التراث غير المادي يجب توثيقها واحترام أصحابها. وقد يؤدي التسويق السياحي غير المنضبط إلى تحويل الثقافة إلى صورة سطحية. لذلك ينبغي أن يشارك الحرفيون والسكان في تقديم تراثهم والاستفادة الاقتصادية منه.

خلاصة الفصل

تتجلى هوية كسلا في أسواقها ومشروباتها وحرفها بقدر ما تتجلى في جبالها. وتمثل هذه الأنشطة اقتصادًا محليًا وذاكرة اجتماعية في آن واحد.

مراجع الفصل

[4] عامر صالح، «سلسلة جبال التاكا».

[5] عماد عبد الهادي، «توتيل: جبل الحب والبركات».

الفصل السادس عشر

التراث العمراني والسياحة المسؤولة

تمتلك كسلا عناصر طبيعية وثقافية قادرة على دعم سياحة مسؤولة، من بينها جبال التاكا وتوتيل ونهر القاش والختمية والأسواق والحرف المحلية. لكن المواقع الطبيعية قد تتعرض للتلف بسبب النفايات والكتابة على الصخور والبناء العشوائي والازدحام وسوء إدارة المياه.

كما تواجه المباني التاريخية مخاطر الإهمال والترميم غير المتخصص واستخدام مواد تغير خصائصها الأصلية. ينبغي أن تبدأ الحماية بمسح شامل للمواقع، يحدد حالتها وملكيتها وأهميتها التاريخية والبيئية. ثم توضع خطط للحماية بالتعاون مع السكان والجامعات والسلطات. ويجب أن تتضمن السياحة المسؤولة تدريب مرشدين محليين، ودعم الحرفيين، وتنظيم جمع النفايات، وتوفير مرافق مناسبة، ومنع المشروعات التي تحجب الجبال أو تضر بالمسارات الطبيعية.

خلاصة الفصل

تنجح السياحة عندما تحمي الموقع وتفيد سكانه. أما السياحة التي تستهلك المكان من دون إدارة، فقد تتحول إلى سبب في تدهوره.

مراجع الفصل

[24] UNESCO, Convention for the Safeguarding of the Intangible Cultural Heritage.

[25] UN Tourism, Sustainable Tourism Development Guidelines.

الفصل السابع عشر

تحديات الحرب والنزوح والبيئة

أدت الحرب السودانية التي اندلعت في أبريل 2023 إلى نزوح أعداد كبيرة من السكان، وانتقل بعضهم إلى ولايات شرق السودان. أدى تزايد السكان إلى ضغط على المياه والسكن والكهرباء والخدمات الصحية والتعليمية، كما توسعت بعض المناطق السكنية بصورة غير مخططة. وفي مايو 2025 تعرض مطار كسلا لهجوم بمسيّرات، في مؤشر على امتداد آثار الحرب إلى مناطق شرق السودان التي ظلت مدة بعيدة نسبيًا عن مراكز القتال الرئيسية.

يؤثر انعدام الأمن في قدرة المؤسسات على حماية المواقع الطبيعية والتاريخية، كما يقلل الموارد المخصصة لصيانة الطرق ومواجهة الفيضانات وإدارة النفايات. ويجب ألا يُنظر إلى النازحين باعتبارهم عبئًا فقط. فهم يحملون مهارات وقدرات اقتصادية واجتماعية يمكن أن تسهم في المدينة متى حصلوا على الحماية والخدمات وفرص العمل.

خلاصة الفصل

ترتبط حماية التراث بحماية السكان. فلا يمكن صون الجبال والأحياء والأسواق في ظل غياب الأمن والخدمات والتخطيط الحضري العادل.

مراجع الفصل

[26] مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية، تقارير الوضع الإنساني في السودان.

[27] Reuters, “Drone Strikes Pound Port Sudan,” May 6, 2025.

الفصل الثامن عشر:

من ذاكرة جدي الحاج إدريس

رحلات رمضان إلى كسلا في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين وصلته بأسرة آل داير

لا يُكتب التاريخ كله في السجلات الرسمية، ولا تحفظه الوثائق وحدها. فهناك تاريخ آخر أكثر قربًا من القلب؛ تاريخ تسكنه أصوات الأجداد، وتحتفظ به البيوت، وتتناقله الأسر كما تتناقل الدعاء والحنين والذكرى.

ومن هذا التاريخ الإنساني جاءت حكايات جدي، **الحاج إدريس،** رحمه الله، عن مدينة كسلا في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين، وعن رحلاته إليها لقضاء شهر رمضان، وعن الصلة العميقة التي جمعته بسيدنا **محمد داير** وأسرة **آل داير**.

لم تكن كسلا في حديث جدي مجرد مدينة يزورها من حين إلى آخر، بل كانت موطنًا للمحبة، ومحطةً للعلم والعبادة، وملتقىً لأهل القرآن والوفاء. وكلما ذكرها، كان صوته يلين، وكأن المسافة بين الماضي والحاضر تضيق فجأة، وكأن طرقها القديمة وأسواقها ومجالسها تعود حية أمامه.

كان يروي لنا أنه كان يخرج من **قرية علي قدر** في منطقة قاش بركة، برفقة أفراد من أسرته وعدد من كبار السن وأعيان المنطقة، متجهين إلى كسلا في رحلات اعتادوا القيام بها خلال أربعينيات القرن الماضي وبدايات خمسينياته.

كانت الرحلة في ذلك الزمن أطول مما هي عليه اليوم، لكنها كانت أخف على النفس؛ لأن الطريق كان ينتهي إلى أهلٍ يعرفون قيمة الضيف، وبيتٍ تفتح أبوابه قبل أن يصل الطارق.

ومن أكثر الذكريات رسوخًا في حديثه زيارته لكسلا سنة **1954**، قبل استقلال السودان بعامين. يومها نزل هو ومن رافقه ضيوفًا في منزل سيدنا محمد داير، رحمه الله، الذي ربطته بجدي علاقة وثيقة من المودة والاحترام والأخوة الصادقة، امتدت آثارها إلى أفراد الأسرتين.

وكان سيدنا محمد داير، كما وصفه جدي، من رجال كسلا المعروفين بحسن السيرة وكرم الضيافة. لم يكن بيته مجرد مكان ينزل فيه القادمون من سفر، بل كان بيتًا عامرًا بالقرآن، مفتوحًا للزائرين، يجتمع فيه أهل العلم والصلاح، ويشعر فيه الغريب أنه بين أهله.

وكان القادمين من قاش بركة والمناطق المجاورة يجدون في ذلك المنزل مأوىً آمنًا، ومجلسًا دافئًا، ووجوهًا تستقبلهم بالمحبة قبل السؤال عن حاجتهم.

في ذلك الزمن، كانت بعض البيوت أكبر من حدودها المادية. كانت تؤدي دور المدرسة والمجلس والمضافة والملاذ. وكان منزل آل داير واحدًا من تلك البيوت التي تعلّم الناس فيها أن الكرم ليس كثرة الطعام، بل سعة القلب، وأن الضيافة ليست واجبًا عابرًا، بل عهدٌ من المودة والإنسانية.

وكان شهر رمضان أجمل مواسم تلك الرحلات وأقربها إلى قلب جدي. فقد كان يقيم هو ومن معه في كسلا طوال الشهر الكريم، ثلاثين يومًا كاملة، يلتقون فيها على تلاوة القرآن، ومراجعته، وحضور المجالس الدينية، وأداء صلاة التراويح وقيام الليل جماعةً مع سيدنا محمد داير.

كانت النهارات تمضي في الصيام والسكينة، والليالي تعمر بالقرآن والدعاء والصلاة. وبعد التراويح، تمتد المجالس في هدوء؛ يتبادل فيها الرجال الأخبار والذكريات، ويتحدثون عن الأهل والقرى والأسواق، وتتجدد بينهم روابط المحبة وحسن الجوار.

وكان جدي يستعيد تلك الليالي بشوق واضح، ثم يقول:

«حين تأتي ليلة الوقفة، كنا نقول لبعضنا: هذه آخر ليلة للتراويح، وغدًا نستقبل عيد الفطر.»

كانت العبارة تحمل فرحتين وحزنًا واحدًا؛ فرحة العيد، وفرحة العودة إلى الأهل، وحزنًا خفيًا على انقضاء شهر جمعهم على القرآن والصلاة وصحبة الأحبة.

وفي صباح العيد، أو قبله بقليل، تبدأ الاستعدادات للعودة إلى علي قدر. غير أن الرحلة لا تكتمل قبل المرور بسوق كسلا، ذلك المكان الذي كان يحمل في نظرهم رائحة المدينة وبهجتها.

كان جدي ومن معه يشترون ملابس العيد للأطفال، والهدايا للأهل، والحلوى والطحينية، ويحرصون على شراء ما كان يعرف آنذاك باسم **التمر البركاوي**.

ولم تكن هذه الأشياء مجرد مشتريات من سوق بعيد، بل كانت رسائل فرح تعود إلى القرية. كان كل ثوب جديد يحمل انتظار طفل، وكل قطعة حلوى تختزن ابتسامة، وكل حزمة تمر تروي شيئًا من حكاية كسلا.

ثم يبدأ طريق العودة.

يعود الركب إلى علي قدر محملًا بما اشترى، لكنه يعود كذلك بما لا يُحمل في الأيدي: أصوات التراويح، ومجالس القرآن، وكرم آل داير، ووجوه الرجال الذين اجتمعوا على المحبة، وصورة مدينة احتضنتهم شهرًا كاملًا ثم ودعتهم كما تودع أهلها.

وكان الأطفال ينتظرون الملابس والحلوى، بينما يعود الكبار بذكريات أثمن من كل ما حملوه من السوق.

تكشف هذه الرواية عن جانب إنساني عميق من حياة شرق السودان والمناطق المجاورة خلال تلك الحقبة. فقد كانت حركة الناس بين علي قدر وكسلا جزءًا طبيعيًا من الحياة، تحكمها روابط الدين والقرابة والتجارة وحسن الجوار، وكانت المسافات تُقطع من أجل زيارة أهل، أو حضور مجلس قرآن، أو قضاء شهر رمضان في بيت كريم.

ولم تكن الحدود في الذاكرة اليومية للناس أقوى من صلاتهم الإنسانية. فقد جمعتهم الطرق والأسواق والقرآن والضيافة، قبل أن تفرض التحولات السياسية والإدارية واقعًا أكثر تعقيدًا في العقود اللاحقة.

وتكشف الذكريات أيضًا مكانة البيوت المفتوحة في المجتمع. فقد كانت بعض المنازل مؤسسات اجتماعية حقيقية؛ تستقبل الضيف، وتطعم العابر، وتجمع أهل العلم، وتربط القرى بالمدن، وتحفظ قيم التكافل والكرم والرحمة.

ولا تستمد هذه الحكاية أهميتها من كونها وثيقة رسمية، بل من كونها شهادة عاشها رجل ونقلها بصدق إلى أبنائه وأحفاده. ومثل هذه الشهادات العائلية تكشف من التاريخ ما لا تقوله التقارير الحكومية: كيف كان الناس يصلّون، ويسافرون، ويكرمون ضيوفهم، ويستقبلون العيد، ويحملون المحبة معهم من مكان إلى آخر.

كان التاريخ في حديث جدي يظهر في أشياء بسيطة، لكنها شديدة الدلالة: طريق من علي قدر إلى كسلا، وبيت يفتح بابه للضيوف، وثلاثون يومًا من الصيام والقرآن، وليلة وداع للتراويح، وسوق مزدحم بفرحة العيد، ثم عودة طويلة تحمل معها التمر والحلوى وملابس الأطفال وذكريات لا تُشترى.

عاش أولئك الناس ببساطة، لكنهم لم يعيشوا حياة فقيرة في المعنى. كانت صداقاتهم عميقة، وبيوتهم عامرة، وصلاتهم صادقة، وذكرياتهم أبقى من كثير من المباني والوثائق.

وقد حفظ لنا جدي الحاج إدريس، رحمه الله، جانبًا من ذلك الزمن؛ زمن كانت فيه كسلا مدينةً تستقبل زائريها بالمحبة، وتجمع أهل القرى والمدن في رحاب الدين والكرم وحسن الصحبة.

رحم الله جدي **الحاج إدريس**، ورحم سيدنا **محمد داير**، وجزى **أسرة آل داير** خير الجزاء على ما عُرف عن بيتهم من كرم الضيافة، وطيب المعشر، وسعة الصدر، وحسن الوفادة.

وستظل هذه الحكاية جزءًا عزيزًا من ذاكرة الأسرة، وشهادة إنسانية على كسلا في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين؛ يوم كانت المدينة تجمع القلوب قبل الطرق، وتصل بين الناس بالمحبة قبل أن تفصل بينهم الحدود وتقلبات الزمن.

المناقشة: الجبل والمدينة والذاكرة

يكشف تاريخ كسلا أن المكان الطبيعي يمكن أن يؤدي وظائف متعددة. فالجبل تكوين جيولوجي، لكنه أيضًا علامة اتجاه وفضاء اجتماعي وموضوع فني ورمز للانتماء.

والنهر مصدر للماء والرواسب الزراعية، لكنه في الوقت نفسه مصدر للفيضانات. أما الحدود فهي خط قانوني بين الدول، لكنها لا تمحو القرابة واللغة والتجارة والحركة التاريخية.

ظلت الجبال في مكانها بينما تغيرت السلطات السياسية التي حكمت المدينة. فقد مرت كسلا بالحكم التركي–المصري والمهدية والاحتلال الإيطالي والحكم الثنائي والدولة السودانية المستقلة.

منح هذا الثبات الجبال قوة رمزية. فهي في الذاكرة الشعبية شاهدة على تغير الحكومات والحروب وبقاء المجتمع. لكن الذاكرة ليست سجلًا محايدًا. فقد تنسى بعض الأحداث، وتضخم أحداثًا أخرى، وتخلط بين الشخصيات والأزمنة. ولذلك لا بد من مقارنة الرواية الشفوية بالمصادر التاريخية.

كما توضح علاقة كسلا بإريتريا أن الحدود السياسية لا تلغي المجال الاجتماعي المشترك. فالعديد من المجتمعات واللغات والعلاقات الاقتصادية أقدم من الحدود الحديثة.

ولا يعني الاعتراف بهذا الترابط تجاهل سيادة الدول، بل يساعد على فهم التاريخ الإنساني للمنطقة بعيدًا عن التبسيط السياسي. إن حماية جبال كسلا يجب أن تشمل البحث العلمي والتوثيق الثقافي والتخطيط العمراني وحماية البيئة وتمكين المجتمعات المحلية.

الخلاصة العامة

توصل الكتاب إلى أن جبال التاكا، وفي مقدمتها توتيل ومكرام، تشكل عنصرًا أساسيًا في صورة مدينة كسلا وذاكرتها الثقافية.

يتميز توتيل بحضوره الشعبي والسياحي وارتباطه بالنبع ومقولة العودة. أما مكرام، فيحتاج إلى توثيق مستقل بسبب قلة المعلومات المنشورة عنه.

وتبين أن نهر القاش أدى دورًا حاسمًا في الزراعة والاستقرار، لكنه مثل كذلك خطرًا متكررًا بسبب الفيضانات. ولهذا ترتبط حماية المدينة بإدارة النهر ومجاري السيول.

تطورت كسلا الحديثة خلال القرن التاسع عشر، ثم مرت بالحكم المهدوي والاحتلال الإيطالي والحكم الثنائي وأحداث الحرب العالمية الثانية.

وأسهمت الختمية ومجتمعات البجا والتجار والمزارعون والمهاجرون واللاجئون في تكوين مجتمع المدينة المتعدد.

كما أصبح الوجود الإريتري جزءًا من التاريخ الاجتماعي الحديث لشرق السودان، بفعل اللجوء والقرابة والهجرة والتجارة.

وأثبتت الدراسة ضرورة الفصل بين التاريخ الموثق والرواية الشعبية. فالحكاية تستحق الحفظ، لكنها لا تصبح وثيقة تاريخية لمجرد تكرارها.

الخاتمة

ليست جبال كسلا صخورًا صامتة. فقد أصبحت في حياة السكان علامات للاتجاه، ومواضع للزيارة، ومصادر للحكاية والحنين. ويجسد توتيل قدرة المجتمع على تحويل الطبيعة إلى ذاكرة. أما مكرام، فيذكرنا بأن كثيرًا من أجزاء التراث قد تبقى خارج الكتب بسبب نقص التوثيق.

إن حماية هذه المواقع تتطلب أكثر من الإعجاب بجمالها. فهي تحتاج إلى مسوح جيولوجية وأثرية، وتسجيل للروايات الشفوية، وحماية للأحياء القديمة، وإدارة للفيضانات، وتنظيم للسياحة.

كما تتطلب إشراك السكان في القرار، لأنهم أصحاب المعرفة المحلية وأول المتأثرين بأي مشروع أو تغيير. يقول الموروث الشعبي إن من يشرب من ماء توتيل يعود إلى كسلا. وربما تكمن قيمة العبارة في أن بعض الأماكن لا تغادر الإنسان حتى بعد أن يغادرها.

مسرد المصطلحات

جبال التاكا: مجموعة من الكتل والمرتفعات الصخرية القريبة من مدينة كسلا، وتشمل توتيل ومكرام وأويتلا وغيرها.

توتيل: أشهر معالم كسلا الجبلية، ويرتبط بنبع مائي وحكاية شعبية عن العودة إلى المدينة.

مكرام: أحد المرتفعات المعروفة في مشهد كسلا، ولا تزال المعلومات المنشورة عن تاريخه وأصل اسمه محدودة.

نهر القاش: نهر موسمي يعبر منطقة كسلا، ويسهم في الزراعة، لكنه قد يسبب فيضانات مدمرة.

البجا: مجموعة من المجتمعات التي تعيش في شرق السودان والمناطق المجاورة للبحر الأحمر، وتضم مجموعات لغوية واجتماعية متعددة.

الهدندوة: إحدى المجموعات الرئيسية ضمن مجتمعات البجا في شرق السودان.

البني عامر: مجتمع يمتد وجوده التاريخي والاجتماعي في السودان وإريتريا، وتتعدد داخله اللغات والانتماءات المحلية.

الختمية: طريقة صوفية مرتبطة بأسرة الميرغني، ولها مركز ديني وتاريخي بارز في كسلا.

المهدية: حركة دينية وسياسية وعسكرية قادها محمد أحمد المهدي، وأقامت دولة في السودان خلال أواخر القرن التاسع عشر.

الحكم التركي–المصري: فترة حكم أسرة محمد علي لمناطق واسعة من السودان، ابتداءً من عام 1821.

الحكم الثنائي: نظام الحكم البريطاني–المصري في السودان بين عامي 1899 و1956، مع هيمنة بريطانية فعلية.

الرواية الشفوية: حكايات ومعلومات تنتقل بالكلام بين الأجيال، وتحتاج إلى التسجيل والمقارنة بالمصادر المكتوبة.

الأسطورة المحلية: رواية تمنح مكانًا أو حدثًا معنى رمزيًا، ولا يشترط أن تكون واقعة تاريخية أو حقيقة علمية.

التراث المادي: المباني والمواقع والصخور والأدوات والمقابر التي تحمل قيمة تاريخية أو ثقافية.

التراث غير المادي: الحكايات واللغات والأغاني والعادات والمعارف والممارسات المتوارثة.

الجغرافيا الثقافية: دراسة العلاقة بين الناس والمكان، وكيف تؤثر البيئة في الهوية والذاكرة والسلوك الاجتماعي.

قائمة المراجع

[1] United Nations Office for the Coordination of Humanitarian Affairs. “OCHA Sudan: Kassala State Profile.” March 2023.

[2] جامعة كسلا. «عن ولاية كسلا». الموقع الرسمي لجامعة كسلا.

[3] American Alpine Club. “Jebel Kassala, The Rüppell Face.” American Alpine Journal.

[4] صالح، عامر. «سلسلة جبال التاكا: مملكة الجن ومعلم ولاية كسلا الأبرز». الترا سودان، 13 فبراير 2025.

[5] عبد الهادي، عماد. «توتيل: جبل الحب والبركات بشرق السودان». الجزيرة نت، 19 مايو 2017.

[6] NASA Earth Observatory. “Flooding along the River Gash in Sudan.” September 2003.

[7] Shuka, Khalid A. M., et al. “Effectiveness of Flood Risk Mitigation Measures: A Case Study of the Gash River, Kassala, Eastern Sudan.” Sustainability 16, no. 5 (2024).

[8] United Nations Development Programme. “Investing in Flood-Prevention Infrastructure in Kassala City.” September 20, 2021.

[9] Collins, Robert O. A History of Modern Sudan. Cambridge: Cambridge University Press, 2008.

[10] Voll, John O. Islam: Continuity and Change in the Modern World. Syracuse: Syracuse University Press, 1994.

[11] Holt, P. M. The Mahdist State in the Sudan, 1881–1898. Oxford: Clarendon Press, 1958.

[12] Berkeley, George Fitz-Hardinge. The Campaign of Adowa and the Rise of Menelik. London: Archibald Constable, 1902.

[13] D'Avray, Anthony. The Nakfa Documents: The Despatches, Memoirs, Reports and Correspondence Describing and Explaining the Stories of the Feudal Societies of the Red Sea Littoral from the Christian-Muslim Wars of the Sixteenth Century to the Establishment of the Italian Colony of Eritrea. Wiesbaden: Harrassowitz, 1996.

[14] "Italian Victory in Africa." The New York Times, July 20, 1894.

[15] Daly, M. W. Empire on the Nile: The Anglo-Egyptian Sudan, 1898–1934. Cambridge: Cambridge University Press, 1986.

[16] Stewart, Andrew. The First Victory: The Second World War and the East Africa Campaign. New Haven: Yale University Press, 2016.

[17] Mockler, Anthony. Haile Selassie's War. Oxford: Signal Books, 2003.

[18] Paul, A. A History of the Beja Tribes of the Sudan. Cambridge: Cambridge University Press, 1954.

[19] Egemi, Omer. “The Beja of Eastern Sudan: Pastoralism, Marginalization, and Conflict.” In studies of pastoral communities in Sudan.

[20] United Nations High Commissioner for Refugees. “UNHCR Looks at Solutions for Eritrean Refugees of Eastern Sudan.” August 22, 2007.

[21] United Nations High Commissioner for Refugees. “Eritrean Returns Cross 50,000; More Expected under New Action Plan.” June 25, 2002.

[22] United Nations High Commissioner for Refugees. No Turning Back: A Review of UNHCR’s Response to the Protracted Refugee Situation in Eastern Sudan. Geneva: UNHCR, 2011.

[23] Vansina, Jan. Oral Tradition as History. Madison: University of Wisconsin Press, 1985.

[24] UNESCO. Convention for the Safeguarding of the Intangible Cultural Heritage. Paris: UNESCO, 2003.

[25] United Nations World Tourism Organization. Sustainable Tourism Development Guidelines. Madrid: UN Tourism.

[26] United Nations Office for the Coordination of Humanitarian Affairs. Sudan Humanitarian Situation Reports. New York and Port Sudan: OCHA.

[27] Reuters. “Drone Strikes Pound Port Sudan, Putting Aid Deliveries at Risk.” May 6, 2025.

الوصف باللغة العربية

جبال كسلا وذاكرة المكان: توتيل ومكرام

الجغرافيا والتاريخ والأسطورة والهوية الثقافية

تأليف المستشار: جمال عمر الحاج إدريس
مستشار معتمد (CMOS)
ماجستير الذكاء الاصطناعي، بكالوريوس العلوم
كيميائي معتمد (C.Chem)
عضو المعهد الكندي للكيمياء (MCIC)

في شرق السودان، حيث ترتفع جبال التاكا في مهابة وهدوء، ويعبر نهر القاش المدينة حاملًا الماء والخصوبة والذكريات، تقف كسلا بوصفها أكثر من مدينة على الخريطة. إنها مكانٌ تسكنه الحكايات، وتحرسه الجبال، وتحمله القلوب معها إلى المنافي والبلاد البعيدة.

يأخذ كتاب **«جبال كسلا وذاكرة المكان: توتيل ومكرام—الجغرافيا والتاريخ والأسطورة والهوية الثقافية»** القارئ في رحلة معرفية وإنسانية إلى واحدة من أجمل مدن السودان وأكثرها ثراءً بالتاريخ والتنوع الثقافي. ومن خلال لغة واضحة وسرد يجمع بين الدقة الأكاديمية ودفء الذاكرة، يكشف الكتاب كيف أسهمت الجبال والأنهار والأحياء والأسواق والطرق القديمة في تشكيل روح كسلا وهويتها.

لا يكتفي الكتاب بوصف جبل توتيل ومكرام من الناحية الجغرافية، بل يتتبع مكانتهما في التاريخ الشعبي والذاكرة الجماعية، ويبحث في ارتباطهما بالختمية ومجتمعات البجا والحياة الاجتماعية في شرق السودان. كما يتناول نهر القاش، والأحياء القديمة، والأسواق، والحرف، والضيافة، والعلاقات الإنسانية التي جعلت من كسلا ملتقىً للناس والثقافات.

ويتابع الكتاب تطور المدينة عبر مراحل تاريخية متعددة، من نشوء كسلا الحديثة في القرن التاسع عشر، مرورًا بالحكم التركي–المصري، والمهدية، والاحتلال الإيطالي، والحكم الثنائي، والحرب العالمية الثانية، وصولًا إلى الاستقلال والتحولات الاجتماعية والإنسانية في العصر الحديث.

ومن أبرز ملامح الكتاب حرصه على التمييز بين التاريخ الموثق والرواية الشعبية. فهو يحترم الأساطير والحكايات المحلية بوصفها جزءًا من التراث، لكنه لا يقدمها على أنها حقائق علمية أو تاريخية مؤكدة. وبهذا يجمع العمل بين الأمانة البحثية وجمال الحكاية، وبين التحليل الأكاديمي وصوت الإنسان العادي الذي عاش المكان وحفظ تفاصيله.

حكاية من قلب الذاكرة

يكتسب الكتاب بعدًا إنسانيًا مؤثرًا من خلال فصل خاص يستعيد ذكريات جد المؤلف، **الحاج إدريس،** رحمه الله، ورحلاته من قرية **علي قدر** في منطقة قاش بركة إلى مدينة كسلا خلال أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين.

كان الحاج إدريس يأتي إلى كسلا مع أفراد أسرته وبعض كبار القوم وأعيان المنطقة، في زمن سبقت فيه الروابط الإنسانية والاجتماعية كثيرًا من القيود التي صنعتها الحدود الحديثة. وكانت رحلته إلى كسلا تتجاوز معنى السفر، لتصبح رحلةً إلى العبادة والصحبة والكرم وصلة الأرحام والأصدقاء.

ومن أكثر ذكرياته حضورًا زيارته إلى كسلا سنة 1954، حين كان ينزل ضيفًا في منزل **سيدنا محمد داير،** رحمه الله، الذي جمعته به علاقة وثيقة من المحبة والاحترام. وكان بيت آل داير من البيوت المفتوحة للضيوف والقادمين من المناطق المجاورة؛ بيتًا لا تُقاس مكانته باتساع جدرانه، بل بما كان يجمعه من أهل القرآن والصلاح، وما يقدمه من دفء وكرم وأمان.

كان الحاج إدريس ومن معه يقضون شهر رمضان كاملًا في كسلا. ثلاثون يومًا من الصيام، وتلاوة القرآن، وصلاة التراويح، وقيام الليل، والمجالس العامرة بالإيمان والمودة. وعندما تحل ليلة الوقفة، كانوا يودعون رمضان بفرح العيد وحزن الفراق، ثم يتجهون إلى سوق كسلا لشراء التمر البركاوي والحلوى والطحينية وملابس العيد للأطفال.

وبعد ذلك تبدأ رحلة العودة إلى علي قدر، محمّلين بالهدايا وأخبار المدينة وذكريات الشهر الكريم. كان الأطفال ينتظرون الملابس والحلوى، بينما يعود الكبار بما هو أبقى: حكايات المجالس، ودفء الضيافة، وصور كسلا التي لا تزول.

ليست هذه الحكاية مجرد ذكرى عائلية؛ إنها نافذة على زمن كانت فيه البيوت مؤسسات للضيافة، وكانت الزيارة عهدًا من الوفاء، وكان رمضان يجمع القرى والمدن والقلوب حول القرآن والصلاة والمودة.

لماذا يستحق هذا الكتاب القراءة؟

يقدم الكتاب للقراء من مختلف البلدان والخلفيات مدخلًا واضحًا إلى تاريخ كسلا وثقافتها، حتى لمن لم يسبق لهم زيارة السودان أو معرفة منطقة القرن الإفريقي. وهو يشرح بأسلوب سهل كيف تتشكل هوية المدن من تفاعل الجغرافيا والتاريخ والأسرة والهجرة والذاكرة الشعبية.

وسيجد فيه أبناء كسلا وشرق السودان شيئًا من وجوههم القديمة، وأسماء أحيائهم، وروائح حدائقهم، وصوت القاش، وهيبة توتيل ومكرام. أما القارئ من خارج المنطقة، فسيكتشف مدينةً تتقاطع فيها الحضارات واللغات والطرق الصوفية والتقاليد المحلية والحركة العابرة للحدود.

كما يحمل الكتاب دعوة واضحة إلى حماية جبال كسلا، ونهر القاش، والأحياء التاريخية، والمعالم الدينية والعمرانية، والحكايات الشفوية التي تتعرض للنسيان مع رحيل كبار السن. ويدعو إلى تطوير سياحة ثقافية مسؤولة تحترم المجتمع المحلي وتحمي البيئة وتعيد تقديم تراث كسلا للعالم بصورة عادلة وجميلة.

هذا الكتاب موجّه إلى الباحثين والطلاب والمؤرخين والمهتمين بالجغرافيا الثقافية والتراث الشعبي، وإلى أبناء السودان وإريتريا والقرن الإفريقي في الداخل والمهجر، وإلى كل قارئ يؤمن بأن المدن لا تُبنى بالحجارة وحدها، بل بما يتركه الناس فيها من محبة وذكرى وأثر.

«جبال كسلا وذاكرة المكان» ليس مجرد كتاب عن توتيل ومكرام، بل رسالة وفاء إلى مدينة صنعت وجدان أجيال. إنه حكاية عن الأماكن التي تظل تسكن الإنسان بعد أن يغادرها، وعن أناس عاشوا ببساطة وكرامة، ثم تركوا أثرًا لا تمحوه الأعوام.

فالصفحات تحفظ الأحداث، لكن القلوب تحفظ أصحابها؛ وفي كسلا رأى أهلها في توتيل أكثر من جبل، وفي القاش أكثر من نهر موسمي، وفي مدينتهم بيتًا للروح قبل أن تكون مكانًا على الخريطة.

The English Description:

Kassala’s Mountains and the Memory of Place Tutil and Makram: Geography, History, Legend, and Cultural Identity

By: Gamal E.O. Elhag-Idris

CMOS Accredited Consultant

MSc (AI), BSc, C.Chem, MCIC

In eastern Sudan, where the Taka Mountains rise above the landscape and the seasonal Gash River carries water, fertility, and memory through the city, Kassala stands as far more than a place on a map. It is a city guarded by mountains, shaped by history, and carried in the hearts of its people wherever they go.

Kassala’s Mountains and the Memory of Place: Tutil and Makram—Geography, History, Legend, and Cultural Identity takes readers on an engaging historical, cultural, and deeply human journey through one of Sudan’s most beautiful and distinctive cities.

Written in clear and accessible language, the book explores how mountains, rivers, neighbourhoods, markets, migration routes, religious traditions, and family memories have shaped Kassala’s identity. It examines Mount Tutil and Mount Makram not only as natural landmarks, but also as living symbols within the cultural memory of eastern Sudan.

The book presents the geography of the Taka Mountains, the seasonal Gash River, Kassala’s historic neighbourhoods, its markets

and crafts, the Khatmiyya Sufi tradition, Beja communities, and the social relationships that connected the city with Eritrea and other parts of the Horn of Africa.

It also traces Kassala’s development through major historical periods, including the Turco-Egyptian administration, the Mahdist era, the temporary Italian occupation, Anglo-Egyptian rule, the Second World War, Sudanese independence, and the social transformations of the modern period.

A central strength of the book is its careful distinction between documented history and popular tradition. Local legends are respected as valuable expressions of cultural identity, but they are not presented as established scientific or historical facts. This gives the work both academic integrity and the warmth of human storytelling.

A Story from the Heart of Memory

One of the book’s most moving chapters recounts the memories of the author’s grandfather, **Al-Hajj Idris**, and his journeys from the village of **Ali Gidir**, in the Gash-Barka region, to Kassala during the 1940s and 1950s.

For Al-Hajj Idris, Kassala was never simply a city to visit. It was a place of worship, friendship, hospitality, and spiritual renewal. He travelled there with members of his family and respected elders from his community during a period when social, religious, and commercial

relationships connected people across the region more naturally than modern political borders might suggest.

Among his most vivid memories was a journey to Kassala in 1954. During these visits, he and his companions stayed in the home of **Sayyidna Muhammad Dair**, a respected man whose close relationship with Al-Hajj Idris was built on affection, trust, and mutual respect.

The home of the Dair family was remembered as one of Kassala’s generous and welcoming houses. Its importance was not measured by the size of its rooms, but by the people it received, the Qur’anic recitation heard within its walls, and the warmth and dignity extended to travellers and guests.

Al-Hajj Idris and his companions would remain in Kassala for the entire month of Ramadan. For thirty days, they fasted, recited and studied the Qur’an, performed the evening Tarawih prayers, and stood together in night prayer. Their days were shaped by worship, while their evenings were filled with quiet conversation, companionship, and spiritual reflection.

When the final night of Ramadan arrived, they would speak of the approaching Eid with both happiness and sadness: happiness for the celebration ahead, and sadness because the month of prayer and togetherness was coming to an end.

Before returning to Ali Gidir, they visited Kassala's market to buy dates—especially the variety remembered as Barakawi dates—along with sweets, tahini confectionery, gifts, and new clothes for the children.

They then began the journey home carrying far more than market goods. They returned with memories of Ramadan, the hospitality of Kassala, the voices of respected elders, and the warmth of a city that had received them as family.

This family story is more than a private memory. It offers a rare human view of everyday life in eastern Sudan and the neighbouring region during the mid-twentieth century. It recalls a time when homes served as centres of hospitality, religious learning, and social connection, and when Ramadan brought villages, families, and communities together.

Why This Book Matters

This book offers readers from different countries and cultural backgrounds an accessible introduction to Kassala and the wider history of eastern Sudan. No previous knowledge of Sudan or the Horn of Africa is required.

Readers from Kassala and eastern Sudan may recognise the names of neighbourhoods, the scent of gardens, the sound of the Gash River, and the presence of Tutil and Makram. Readers from elsewhere will

discover a city shaped by cultural diversity, oral tradition, trade, spirituality, migration, and enduring relationships across borders.

The book also calls for the protection of Kassala's mountains, historic neighbourhoods, architectural landmarks, natural environment, and oral histories. As older generations pass away, many local memories risk disappearing unless they are carefully recorded and preserved.

It advocates responsible cultural tourism that protects the landscape, respects local communities, supports craftspeople and small businesses, and presents Kassala's heritage to the world without reducing it to a commercial image.

This book will appeal to historians, students, researchers, travellers, members of the Sudanese and Eritrean diasporas, and general readers interested in cultural geography, oral history, heritage, identity, memory, and the emotional relationship between people and place.

Kassala's Mountains and the Memory of Place is not simply a book about Tutil, Makram, or a city in eastern Sudan. It is a tribute to a place that shaped generations, and to people who lived with simplicity and dignity yet left memories too deep for time to erase.

Pages preserve events, but hearts preserve the people who lived them. In Kassala, Tutil has always been more than a mountain, the Gash more than a seasonal river, and the city itself a home for the spirit before it is a place on the map.

Kassala's Mountains and the Memory of Place

Tutil and Makram:
Geography, History, Legend, and Cultural Identity

ABOUT THE AUTHOR



Gamal E.O. Elhag-Idris,

CMOS Accredited Consultant

MSc (AI), BSc, C.Chem, MCIC

Gamal E.O. Elhag-Idris is a multidisciplinary researcher and scientific writer whose work spans artificial intelligence, neuroscience, environmental chemistry, oceanography, and emerging technologies. He is a Chartered Chemist (C.Chem), a member of the Canadian Institute of Chemistry (MCIC), and an accredited consultant through the Canadian Meteorological and Oceanographic Society (CMOS).

His research and publications focus on the intersection between science, technology, ethics, healthcare, and human society, with particular interest in artificial intelligence applications, neurotechnology, environmental systems, and advanced scientific innovation.

Through his writings, he aims to present complex scientific topics in a clear, accessible, and responsible manner for both specialists and general readers.

ABOUT THIS BOOK

This book explores the city of Kassala and its mountains, especially Tutil and Makram, through an integrated approach that connects geography, history, oral traditions, and cultural identity. It examines how these natural landmarks shaped settlement, trade, memory, and community life over time. The book distinguishes between documented history, geographical facts, and respected legends, encouraging field research, heritage preservation, and the protection of Kassala's natural and cultural assets for future generations.

جبال كسلا وذاكرة المكان

توتيل ومكرام:
الجغرافيا والتاريخ والأسطورة والهوية الثقافية

نبذة عن المؤلف

جمال عمر الحاج إدريس

مستشار معتمد (CMOS)

ماجستير الذكاء الاصطناعي

بكالوريوس العلوم

كيميائي معتمد (C.Chem)

عضو المعهد الكندي للكيمياء (MCIC)

جمال عمر الحاج إدريس باحث ومتخصص متعدد المجالات وكاتب علمي، يمتد عمله في مجالات الذكاء الاصطناعي وعلم الأعصاب والكيمياء البيئية وعلم المحيطات والتقنيات الناشئة. وهو كيميائي معتمد (C.Chem)، وعضو في المعهد الكندي للكيمياء (MCIC)، ومستشار معتمد من الجمعية الكندية للأرصاد الجوية والمحيطات (CMOS).

تركز أيحاثه ومؤلفاته على تقاطع العلم والتكنولوجيا والأخلاق والرعاية الصحية والمجتمع الإنساني، مع اهتمام خاص بتطبيقات الذكاء الاصطناعي وتقنيات الأعصاب والأنظمة البيئية والابتكار العلمي المتقدم.

ومن خلال كتاباته، يهدف إلى تقديم الموضوعات العلمية المعقدة بطريقة واضحة وميسرة ومسؤولة لكل من المتخصصين والقراء العامين.

عن هذا الكتاب

يستكشف هذا الكتاب مدينة كسلا وجبالها، وخاصة توتيل ومكرام، من خلال منهج يجمع بين الجغرافيا والتاريخ والروايات الشعبية والهوية الثقافية. ويتناول كيف تشكلت هذه المعالم الطبيعية عبر الزمن في العمران والتجارة والذاكرة وجياة المجتمع. ويميّز الكتاب بين التاريخ الموثق والحقائق الجغرافية والأساطير الموروثة، ويشجع على البحث الميداني وجماية التراث الطبيعي والثقافي لكسلا للأجيال القادمة.

